المحاضرة الثانية: الفكر الاجتماعي في أوروبا في العصور الوسطى وعصر النهضة:

هدف المحاضرة: التعرف على الفكر الاجتماعي في أوربا في العصور الوسطى وعصر النهضة.

أ-الفكر الاجتماعي في أوربا في العصور الوسطى وعصر النهضة:

تشمل العصور الوسطى تلك الفترة التي بدأت بسقوط الدولة الرومانية الغربية على أيدي البرابرة بعد منتصف القرن الخامس ميلادي واستمرت حتى القرن الخامس عشر، وهو تحديد تقريبي، وأثناء هذه الفترة حدثت تغيرات وتحولات مهمة في المجتمعات الأوروبية، ولعل أول هذه التحولات هي محاولة رجال العصور الوسطى إصلاح ما أفسدته غزوات البرابرة والعمل عل تثبيت الاستقرار بعد الفوضى، فكان عليهم أن يخرجوا بأوربا من هذا المنعرج ليصلوا إلى حياة أفضل.

إن المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى كانت تأخذ العلوم على علاتها، ولعل شعارهم في ذلك معروف وهو: "**اعتقد ولا تنتقد**"، أما عندما أشرفت هذه العصور المظلمة على النهاية وانبلج عصر النهضة سادت الفكرة التي تقول: "**انتقد قبل أن تعتقد**"، أي أنه لا يجوز الاعتقاد في شيء قبل فهمه، وعلى إثر ذلك بدأت العقول في أوربا تتحرر، واتجهت المجتمعات الأوروبية إلى نبذ ما كان معمولا به في العصور الوسطى حتى في الدين نفسه، لأن الإكليروس(رجال الدين) كانوا يهيمنون على كل شيء، وظهر الهراطقة الذين تعرضوا بالنقد للكنيسة الكاثوليكية، حتى نمت تلك الروح في أوائل العصر الحديث ونتج عنها حركة الإصلاح الديني البروتستنتي بقيادة الألماني مارتن لوثر.

في العصور الوسطى كانت المجتمعات الأوروبية ذات وحدة سياسية شاملة على رأسها إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، ولم تكن فكرة الدولة والأمة بالمعنى المفهوم عندنا اليوم، فعلماء النظريات السياسية في العصور الوسطى كانوا يؤمنون أن المسيحية تكون دولة واحدة يحكمها البابا والإمبراطور فيما بينهما بتفويض من الله تعالى، بحيث يكون الأول في المسائل الدينية بينما الثاني في المسائل الدنيوية، ولهذا فإنه من الواجب طاعتهما.

لم يكن هناك أي تفكير حول نظام حكومي أحسن وأفضل من هذا النظام الشمولي، وفيما بعد بدأ التفكير جديا في النظم الحكومية، ومهمة الحكومة تبلورت في نظرية مفادها: **أن مهمة أي حكومة هي السهر على مصالح الأمة والمجتمع**، وقد كان السباق في هذا الشأن:

1-نيقولا ميكيافيلي(1469-1527):

وهو الإيطالي القاضي، السياسي والدبلوماسي الذي كتب مؤلفه المشهور"**الأمير**"، بعد أن تقلد عدة وظائف، كما عين في مهمات سياسية في إيطاليا وخارجها، وبذلك حصل على ثقافة سياسية واجتماعية واسعة، واقتنع بأن القوة وحدها هي التي تعيد لإيطاليا مجدها ومكانتها، وكان تأليفه هذا هم كل من شغلته السياسة و فنون الحكم، وانتفع بهذا الكتاب أيضا العديد من ساسة العالم لما يحتويه من شرح مستفيض لأصول الحكم وفن السياسة، ولذا نجد ملوك أوربا خلال القرنين 16م و17م ساروا على نسقه، حتى قيل: **السياسة فن الممكن**، كما نجد أيضا المفكر:

2-سير توماس مور: (1478-1535)

ابن البرجوازية البريطانية وصديق إرزمس، الذي ألف كتابه المعروف **اليوتوبيا**، ونشر في سنة 1516، وشرح فيه آراءه الدينية والسياسية، واقتبس فكرته من كتاب **جمهورية أفلاطون**، وأبان المساوئ التي كانت منتشرة في عهده وقام بنقدها بالمثل العليا التي اهتدى إليها عن طريق تفكيره. وهكذا فقد ظهرت في فترة الانتقال نظريات سياسية جديدة أدت إلى انهيار وسقوط نظريات العصور الوسطى، وبدأ الفكر السياسي يتضح وقامت الدول والأمم الحديثة.

وما يجب التذكير به أن العصور الوسطى تميزت بالنظام الإقطاعي، فقد كانت الأرض موزعة بين نبلاء يملكونها بما عليها من إنسان وحيوان، وفلاحين يقومون بخدمتها، وعلى إثر ذلك كانت الأرض هي عمود الثروة الاقتصادية، ومن خلال هذا انعدمت الطبقة الوسطى في المجتمع، والتي تعتبر عماد المجتمعات، وعليه فقد كان المجتمع الأوربي في العصور الوسطى يتكون من طبقتين؛ أشرافا يتمتعون بكل شيء وفلاحين بمثابة أقنان الأرض.

في بدايات العصور الحديثة لم تعد الأرض هي مصدر الثروة، فقد راجت التجارة وأينعت الصناعة، وظهرت على إثر هذا الطبقة الوسطى التي تشتغل بالتجارة ونالت ثراء دفعها إلى النفوذ الذي حرمت منه في عصور الظلام، وبخاصة عندما توسعت العلاقات التجارية بين أوربا والعالم الجديد بعد حركة الكشوف الجغرافية، كما تطورت العلاقات التجارية بين أوربا والشرق القديم بمنتجاته المتنوعة وغلاته المتعددة.

انتعشت أحوال أوروبا بانتعاش تلك الطبقة الجديدة(الطبقة الوسطى)، والتي كان من مصالحها تدعيم نفوذ الأنظمة الملكية ليسود الاستقرار حتى تقدر على ممارسة نشاطها ومضاعفة ثروتها، وبذلك ارتبطت مصالح هذه الطبقة بمصالح الملوك، حيث استعان الملوك فيما بعد بمواهب وقدرات وأموال الطبقة الوسطى، وعينوا منها القضاة، حكام الأقاليم وبعض المشرعين...، وبالتالي تغيرت نظرة الملوك إلى الحكم، وقد كونوا فيما بعد جيوشا ثابتة تبقى أيام الحرب والسلم كمدافع ضد طمع الأشراف والنبلاء وضد غزو الأجانب، كما تقوم هذه الجيوش بالغزوات والحروب التي يفكر فيها الملوك، وتم اختراع البارود في نهاية العصور الوسطى وكان هذا أكبر معين للملوك ضد فروسية القرون الوسطى، وبذلك دكت معاقل النبلاء والأشراف، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تغير المجتمع.

وقد ظهرت في العصور الحديثة روح جديدة وهي **الفردية**، والنزوغ إلى التفكير الحر؛ أي عدم تقيد الفرد بما لا يستسيغه أو يعتقده، ظهر هذا في التفكير الديني وأدى إلى بروز حركة الإصلاح الديني، كما ظهرت الروح الفردية في الشأن السياسي وتجلى هذا في قيام الدول القومية، ولا تزال الدولة صاحبة الحق في كل شيء والفرد خاضع لها ويسير على دربها إلى أن أتت الثورة الفرنسية وأعلنت حقوق الإنسان، كما رفعت شعاراتها المعروفة وهي المساواة، الحرية والأخوة، وبدأت هذه الشعارات تنساب تدريجيا إلى باقي الدول الأوروبية.

وفيما يخص حركة النهضة، فقد حدثت حركة إحياء الآداب والعلوم والفنون الكلاسيكية والتي امتازت بها إيطاليا منذ القرن 14م والدول الأخرى فيما بعد، ولكن القائمين عليها من علماء وأدباء أولوها عناية كبيرة، فدرسوا كل ما هو كلاسيكي من آثار الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخلفات فنية فريدة في ميادين النحت والرسم والنقش والموسيقى والمعمار، واستطاعوا في هذه الحركة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقده، غير مهتمين بتعاليم

رجال الدين ولا بتقاليد الكنيسة، كما أخذت الحضارة الإسلامية تنساب إلى القارة الأوروبية منذ القرن 11م، وسلكت في طريقها عدة مسارات، منها شبه جزيرة إيبيريا، جزيرة صقلية، وبلاد الشرق الأدنى في فترة الحروب الصليبية، وهذا كله أدى إلى تمهيد الطريق نحو الرقي وتحرير الفكر الأوربي من القيود والأغلال التي كانت تكبله.

ظهر العديد من المفكرين والفلاسفة والمبدعين في مجالات كثيرة يصعب أن نذكرهم جميعا، لكن يجب الإشارة إلى البعض منهم، ممن كانت مساهماتهم وخدماتهم جليلة في ميدان الفكر الاجتماعي والسياسي معا:

-في ميدان اللغات: ظهر **دانتي الجيري(1265-1331)**، كتب كتابه المشهور **الكوميديا الإلهية** باللغة الإيطالية.

-في فرنسا كتب **مونتاني(1533-1592)** رسائل رائعة في **الأخلاق**، وكتب فرانسوا رابليه قصته عن مخاطرات **بتنجرول دجارجانتوا** .

-في إسبانيا ألف **سيرفانتس (1547-1616)** باللغة الإسبانية قصته المشهورة **دون كي شوت دي لا مانشا** في سنة 1605.

-في إنجلترا كتب **تشوسر(1340-1400)** قصص كانتر بيري باللغة الإنجليزية، وقد تأثر في شعره **ببوكاشيو** أبو النثر الإيطالي، وظهر **سبنسر(1522-1599)** ثاني شعراء إنجلترا العظام حتى ظهر شكسبير في آخر عصر النهضة.

-وفي الآثار ظهر **بوجيو** الذي درس آثار روما بطريقة علمية في تأليف سماه **وصف روما**، وظهر **فلافيو بيوندر(ت1463)** الذي ألف موسوعة في بعث روما، انتصار روما ووصف إيطاليا، والكتاب يعالج تاريخ وأنظمة وعادات الرومان وتخطيط وآثار إيطاليا القديمة، ويعتبر بحق مؤسس علم الآثار، وقرب نهاية حياته أصدر البابا بيوس الثاني أمرا بابويا بقصد يعلن فيه حماية مخلفات روما القديمة من التلف والضياع.

-ظهر **رافيلو** مهتما بالآثار وأسس متحف الكابيتول ومتحف الفاتيكان.

-برز **يعقوب مازوكي** في علم النقوش وزميله **فراتشسكو ألبرتيني** فألفا كتابا بعنوان: "**نقوش مدينة روما القديمة**".

-كما برز بارتيلميو مارليانو الذي نشر كتاب "**خطط روما**" سنة 1537.

*وفي التاريخ ظهر:

لورونزوفالا الذي ألف كتابا تحت عنوان: "**هبة قسطنطين**".

-ظهر **برونين وبوجيو** وكتبا كتابا بعنوان: "**تاريخ فلورنسة**"

-كتب **نيكولا ميكيافيلي(1469-1542)** "**تاريخ فلورنسا**"، وكتب أيضا دراسة واسعة عن الاستبداد نظريا وعمليا سماها **الأمير**(1512).

-ظهر **ديديه إرزمس(1467-1536)** أكبر داعية للنهضة خارج إيطاليا (عالم هولندي)، وكان يرى أن الدراسات الإنسانية وسيلة لغاية وهي إصلاح المجتمع الأوربي، ترجم الإنجيل من الإغريقية إلى اللاتينية، وكان يرى أن التعليم أرقى مهنة، وهو الذي أطلق عليه اسم فولتير اللاتيني.

-ظهر **رويخلن** في ألمانيا والذي اهتم بدراسة الأدبين اليوناني واللاتيني، ثم اهتم بالعبرية باعتبارها مفتاحا لدراسة العهد القديم (دراسة الكتاب المقدس).